الباب الثامن

وصيتي إليك أخي المسلم

اعلم علمني الله وإياك : أن الموت حق وحقيقة لا مفر منه ، ولابد لكل مخلوق أن يموت يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد (١٩)** ﴾ [ق : ١٩] .

ويقول سبحانه : ﴿ **قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم** ﴾ .

[الجمعة : ٨] .

ويقول الأول بالابتداء والآخر بالانتهاء : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ .

[آل عمران : ١٨٥] .

ويقول سبحانه : ﴿ **كل من عليها فان (٢٦) ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (٢٧)** ﴾ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] .

فلابد أن ترحل في رحلة لا تعود منها إلى الدنيا ولا بدًا أن تركب مركبًا لم تركب مثله أبدًا .

يقول خُليد البصري - رحمه الله - : كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مستعد ، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً ، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفًا فعلام تعرجون وما عسيتم تنتظرون ؟ الموت ؟ ، فهو أول وارد عليكم من ربكم بخير أو بشر ، فيا أخوتاه سيروا إلى ربكم سيرًا جميلاً .

قل للمفرط يستعد ... ما من ورود الموت بد
قد أهلك الدهر الشباب ... وما مضى لا يسترد
أو ما يخاف أخو المعاصي ... من له في البطش الأشد
يومًا يعاين موقفًا ... فيه الخطوب لا تحد

قال ابن الجوزي - رحمه الله - : يجب على من لا يدري متى يبغته أن يكون له مستعداً ولا يغتر بالشباب ، فإن أقل من يموت من الأشياخ وأكثر من يموت الشباب ، ولهذا يندر من يكبر .

يعمر واحد فيغر قومًا وينسى من يموت من الشباب

رأى الحسن البصري شيخًا في جنازة فلما فرغ من الدفن قال له الحسن :

يا شيخ بربك أتظن أن هذا الميت يود أن يُرد إلى الدنيا فيزيد من عمله الصالح ويستغفر الله من ذنوبه السالفة .

قال الشيخ : اللهم نعم .

فقال الحسن : فما بالنا لا نكون كهذا الميت ، ثم انصرف وهو يقول : أي موعظة ؟ ، وما أنفعها لو كان بالقلوب حياة ولكن لا حياة لمن لا يتعظ .

أخي المسلم : انظر يرعاك الله إلى حال الخائفين الذين استعدوا للموت قبل أن ينزل بساحتهم .

قال القعقاع بن حكيم : قد استعدت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتاني ما أحببت شيء عن شيء .

وقال حاتم الأصم : سمعت شقيق البلخي يقول : استعد إذا جاءك الموت لا تسأل الرجعة » .

وكان بشر الحافي : إذا ذكر عنده الموت يقول ينبغي لمن يعلم أنه يموت أن يكون بمنزله من جمع زاده فوضعه على رحله لم يدع شيئًا من يحتاج إليه إلا وضعه .

وقال لقمان لابنه : أمر لا تدري متى يلقاك ، استعد له قبل أن يفجأك .

وهذه رسالة عاجلة إلى من غره ماله ، وإلى من غره سلطانه ، إلى من غرته صحته ، إلى من غره طول الأمل .

يقول شميط بن عجلان ـ رحمه الله ـ : أيها المغتر بطول صحته ، أما رأيت ميتًا من غير سقم ، أيها المغتر بطول المهلة ، أما رأيت مأخوذًا من غير عدة ، إنك لو فكرت ما تقدم من لذاتك أبالصحة تغترون ، أم بطول العافية تمرحون ، أم للموت تأمنون ، أم على ذلك الموت تجترؤون ؟ ، إن الموت إذا جاء لم يمنعه منك ثروة مالك ، ولا كثرة احتشادك ، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط .

ثم يقول رحمه الله :

رحم الله عبدًا عمل لساعة الموت

رحم الله عبدًا عمل لما بعد الموت

رحم الله عبدًا نظر لنفسه قبل نزول الموت

كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشي :

أما بعد : فإني أوصيك بتقوى الله سبحانه وتعالى والعمل بما علمك الله تعالى ، والمراقبة حيث لا يراك إلا الله عز وجل والاستعداد لما ليس فيه حيله ولا ينتفع بالندم عند نزوله، فاحسر عن رأسك قناع الغافلين، وانتبه من رقدة الموتى ، وشمر للسباق غدًا ، فإن الدنيا ميدان السابقين ، ولا تغتر بمن أظهر النسك وتشاغل بالوصف وترك العمل بالوصف ، واعلم يا أخي أنه لابد لي ولك من المقام بين يديه ـ يدي ـ الله تعالى يسألنا عن الدقيق الخفي وعن الجليل الخافي ، وليست آمن أن يسألني وإياك عن وسواس الصدور ولحظات العيون والإصغاء للاستماع واعلم أنه لا يجزي القول » [١] .

---

(١) الموت وسكراته ، فتحي السيد ، (ص ٢٨ ، ٢٩) .

وكتب محمد بن يوسف الأصبهاني العابد إلى بعض إخوانه :

أقريء من أقرأتنا منه السلام ، وتزود لأخراك وتجاف عن دنياك ، واستعد للموت وبادر الفوت واعلم أن أمامك أهوالاً وأفزاعًا قد أرهبت الأنبياء والرسل والسلام » .

وعن رجل من قريش قال : كتب رجل إلى أخ له :

أما بعد : فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث والسلام [١] .

وكتب الربيع بن خثيم إلى بعض أخوته :

« أن رم جهازك وكن وصي نفسك ولا تجعل أوصياءك الرجال ، وفي الحلية : أعد زادك وخذ في جهادك وكن وصي نفسك .

ويعني بعدم وصية الرجال : أن لا يبقي عنده شيء من الدنيا فيوصي به .

وعن أبان بن سليم الصوري أنه كتب إلى بعض إخوانه : أما بعد فإنك أصبحت تجدد الدنيا بطول أملك وتتمنى على الله الأماني بسوء فعلك ، وإنما صرت حديداً بارداً والسلام [٢] ، وعن الحجاج بن محمد قال : كتب إلى أبو خالد الأحمر في كتابه « إن الصدقين كانوا يستحيون من الله عز وجل أن يكون اليوم على منزلة أمس » .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أناس من أصحابه يوصيهم فقال :

أما بعد :

فإني أوصيك بتقوى الله العظيم والمراقبة له واتخذو التقوى والورع زاداً

---

(١) **كتاب** : سكب العبرات ، (جـ٢ ، ص ٤٣٦) .

(٢) **كتاب** : سكب العبرات ، (جـ٢ ، ص ٤٥٠) .

فإنكم في دار عما قريب تنقلب بأهلها والله في عرصات القيامة وأهوالها يسألكم عن الفتيل والنقير ، فالله الله عباد الله ، اذكروا الموت الذي لابد منه واسمعوا قول الله تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرحمن : ٢٦] ، وقوله عز وجل : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، وقوله عز وجل : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾ [محمد : ٢٧] .

فلقد بلغني والله أنهم يضربون بسياط من نار [١] .

(١) **كتاب** : سكرات الموت (ص ٣٠ ، ٣١)